دين اللّه الذي وعد بإظهاره، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر. فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهيأ السلطان وعبأ أصحابه تعبئة عسكريه تدل على فهم ثاقب لأنه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها في نقطة لا تبرحها لتكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم أشعل نار الحرب بهمته العالية واستجر الروم إليه حتى صار الكمين من ورائهم وحينئذ أخذتهم الجنود السلجوقية من أمامهم ومن خلفهم فما عتم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم الذعر والرعب وأسر ملكهم، قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الأثقال ومعهم منجنيقات كثيرة منهم منجنيق له ثمانية أسهم ويمد فيه ألف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمي حجراً وزنه ـ بالرطل الكبير الخلاطي ـ قنطار وكثر عدد الأسرى من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكراع والسلاح والمتاع فبيعت (١٢) خوذة بسدس دينار وثلاثة أدراع بدينار.

وعاد السلطان مؤيداً ظافراً بعد هذه الواقعة التي لم تقم للروم بعدها قائمة في نواحي أرمينية.

وكان عهد ألب أرسلان كله عهد نمو وارتقاء في دولة السلاجقة لا للسيف وحده بل للعلم أيضاً فإن نظام الملك أسس في عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها (سنة ٤٥٨) ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازي ولما رأى ذلك شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور مستوفي المملكة ببغداد بنى على ضريح أبي حنيفة رحمه اللّه بباب الطاق مشهداً ومدرسة لأصحابه وكتب على تلك القبة.

ألم تر هذا العلم كان مشتتاً فجمعه هذا المغيب في اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة فأنشرها فضل العميد أبي سعد

وفي (سنة ٤٦٥) توجه ألب أرسلان قاصداً بلاد الترك فعبر نهر جيحون ولكن المشيئة سابقته فسبقته. حكي عنه أنه قال وهو يقرب من الموت: ما كنت قط في وجه قصدته ولا عدو أردته إلا توكلت على اللّه وطلبت منه النصر وأما في هذه النوبة فإني أشرفت من تل عال فرأيت عسكري فقلت أين من له قدر بمصارعتي ومعارضتي وإني أصل بهذا العسكر إلى بلاد الصين. فكان ما أراد اللّه وكانت وفاته في (٦) ربيع الأول (سنة ٤٦٥).

ولي السلطنة بعده ولي عهده السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه.

ولأوائل حكمه توفي الخليفة القائم بأمر اللّه ثالث عشر شعبان (سنة ٤٦٧) فقام بالإمر بعده ولي عهده حفيده.

٢٧ ـ المقتدي بأمر اللّه

أبو القاسم عبد اللّه بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر

سواه فإن الذخيرة توفي أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانقراض الخلافة من البيت القادري إلى غيره ولم يشكوا في اختلاف الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادري كانوا يخالطون العامة في البلد ويجرون مجرى السوقة فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم لم يكن له قبول ولا هيبة فقدر اللّه أن الذخيرة كانت له جارية أرمنية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما توفي ظهر أنها حامل وولدت بعد موت سيدها بستة أشهر وذلك الولد هو عبد اللّه الذي ولاه جده العهد بعده لما بلغ الحلم وقد بويع بعد وفاة جده واستمر خليفة إلى أن توفي فجأة في يوم السبت خامس محرم (سنة ٤٨٧). فكانت خلافته (١٩) سنة وثمانية أشهر غير يومين وهو من خيرة بني العباس كان قوي النفس عظيم الهمة أصلح كثيراً من الأحوال الأدبية ببغداد فأمر بنفي المغنيات والمفسدات منها ووقع الهرادي والأبراج التي للطيور ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم الناس ومنع الملاحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين ولذلك أصلح كثيراً من الماديات فعمرت في بغداد عدة محال في خلافته ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة وألزم أربابها بحفر آبار للمياه وأمر أن من يغسل السمك المالح يعبر إلى النجمي فيغسله هناك وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله وكان سلطان السلاجقة في عهده ملكشاه الذي ذكرنا قيامه بعد أبيه ألب أرسلان.

وكان ملكشاه سلطاناً عادلاً ذا فضل وإنصاف شجاعاً مقداماً صائب الرأي والتدبير أيامه في دولة السلاجقة واسطة عقدها وكان ميمون النقيبة لم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه ولما توجه إلى الشام وأنطاكية بلغ إلى حد قسطنطينية وقرر ألف دينار على ملوكها تحمل إلى خزانته ووضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبراً إسلامياً ولم يزد زمن ذلك العمل على شهرين ثم عاد إلى الري وقصد سمرقند فظفر بخانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار في ركابه إلى موضع سرير ملكه ثم من عليه وأعاده إلى ملكه. وتوجه في السنة الثانية إلى أوزكند فأخضعها وخضع له جميع الملوك والرؤساء بالمشرق والمغرب. وهذه السعادة كلها إنما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق رضي أمير المؤمنين الطوسي، وكان معدوداً من العلماء الأجواد وكان محباً للعلم مجلسه دائماً معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية في سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما وكان يقول إني لست من أهل هذا الشأن ولكني أحب أن أجعل نفسي على قطار نقلة حديث رسول اللّه ﷺ وكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة وأسقط في زمنه كثيراً من المكوس والضرائب وهو الذي أزال لعن الأشعرية من المنابر وكان سلفه

عميد الملك الكندري قد حسن للسلطان طغرلبك التقديم بلعن الرافضة فأمره بذلك فأضاف إليهم الأشعرية ولعن الجميع فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم مثل إمام الحرمين وأبي القاسم القشيري وغيرهما فلما ولي نظام الملك أزال ذلك جميعه وأعاد العلماء إلى أوطانهم.

ومن طريف الأخبار أن نظام الملك كان إذا دخل عليه إمام الحرمين وأبو القاسم القشيري يقوم لهما ويجلس في مسنده كما هو وإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي يقوم إليه ويجلسه في مكانه ويجلس هو بين يديه فقيل له ذلك فقال إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا علي يقولون لي أنت كذا وكذا يثنون بما ليس في فيزيدني كلامهم عجباً وتيهاً وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسي لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه. وكان ينظر في الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء ويشدد في أمرها وعلى الجملة فكان غرة في جبين آل سلجوق ومن حسناته حجة الإسلام الإمام الغزالي فهو قرينه في الطلب ازدانت بهما طوس واختالت على ما سواها من بلاد فارس وكان مؤيداً بقرينين مؤيدين لدولته وهما كمال الدولة أبو الرضى فضل اللّه بن محمد صاحب ديوان الإنشاء والطغراء وشرف الملك أبو سعد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء وكلاهما صاحب الرأي والتدبير والدهاء والجود، ومع ما ظهر منه من الكفاية ويمن النقيبة وسعادة الحركة لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحاً بل ما زالوا في سعاياتهم حتى نغل ذلك الأديم ومل السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته فأنفذ إليه أحد خاصته برسالة واختار عيناً يحصي على الوزير ما يفوه به، وكان مضمون الرسالة إنك استوليت على ملكي وقسمت ممالكي على أولادك وأصهارك أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك؟ فكان جوابه عن تلك الرسالة ـ قولوا للسلطان إن دواتي مقترنة بتاجك، فمتى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب ـ فاشتد من ذلك الجواب غيظ السلطان وكان بعد ذلك أن أحد الملاحة اعتدى على نظام الملك فقتله وذلك (سنة ٤٨٥).

ومن غرائب المصادفات أن السلطان لم يعش بعده إلا (٣٣ يوما) وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقي ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف.

مات ملكشاه بعد أن اتسع ملكه اتساعاً عظيماً فخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت إليه الروم الجزية ولم يفته مطلب. وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد: أسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد، وعمر الطرق والقناطر والمرابط التي في المفاوز وحفر الأنهار الخراب، وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطرق مكة وبنى البلد بأصبهان.

وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود. وكان محمود

طفلاً وأمه تركان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدي أن يعين ولدها للسلطنة فأجاب إلى ذلك على شروط اشترطها إلا أن جنود نظام الملك ساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على أن يكون هو السلطان، فتم ما أرادوا وأرسل تقليده إلى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه وكانت وفاته في (١٥) محرم (سنة ٤٨٨).

وفاة المقتدي:

في منتصف المحرم (سنة ٤٨٧) توفي المقتدي باللّه فجأة بعد أن قدم إليه تقليد السلطان بركياروق فقرأه وعلم ما فيه ولم يمضه.

٢٨ ـ المستظهر باللّه

بويع بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر باللّه واستمر خليفة إلى أن توفي في ١١ ربيع الآخر (سنة ٥١٢) فكانت خلافته (٢٤ سنة) وثلاثة أشهر و(١١ يوماً) وكانت سنه حين توفي (٤١ سنة) وستة أشهر وستة أيام.

حال الممالك الإسلامية في عهده:

وكان بالأندلس والمغرب الأقصى دولة الملثمين والقائم بأمرهم يوسف بن تاشفين إلى (سنة ٤٨٠) ثم من بعده ابنه علي إلى (سنة ٥٣٧).

وبإفريقية من آل زيرى تميم بن المعز بن باديس إلى (سنة ٥٠١) ثم يحيى بن تميم إلى (سنة ٥٠٩) ثم علي بن يحيى إلى (سنة ٥١٥).

وبمصر من الفاطميين المستعلي أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد إلى (سنة ٤٩٥) ثم الآمر بأحكام اللّه علي المنصور بن المستعلي إلى (سنة ٥٢٤).

وبزبيد من الدولة النجاحية الأمير جيش بن نجاح (سنة ٤٩٨) ثم فاتك بن جيش إلى (سنة ٥٠٣) ثم منصور بن فاتك إلى (سنة ٥١٧).

وبصنعاء ومهرة ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمداني من (سنة ٤٩٢) إلى (سنة ٥٠٢) ثم عبد اللّه بن حاتم إلى (سنة ٥٠٤) ثم معن بن حاتم إلى (سنة ٥١٠) ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماص.

وما عدا ذلك من البلدان الإسلامية في آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة. كان المستظهر باللّه من خيار بني العباس لين الجانب كريم الأخلاق يحب الاصطناع ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير